

الإسلام في جمهوريات آسيا الوسطى

د. رشنا غانم^(*)

آسيا الوسطى^(١) هي منطقة جغرافية مغلقة تقع في قلب قارة آسيا، أو قلب العالم، أو آسيا الداخلية، أو بلاد ما وراء النهر، كما كانت تعرف في فترة الخلافة الإسلامية؛ حيث تسود الديانة الإسلامية في سكان مناطق وسط آسيا. وتضم خمس جمهوريات هي: (أوزباكستان - كازاخستان - قرغيزستان - طاجيكستان - تركمانستان)^(٢).

١- أوزباكستان: جمهورية أوزباكستان أرض حبسية^(٣)، ولها شاطئ على بحر أورال (بحر مغلق) بطول ٤٢٠ كم، وهي تقع في منتصف قارة آسيا، ويحدها من الشمال والغرب كازاخستان، ومن الجنوب أفغانستان وتركمانستان، ومن الشرق قرغيزستان وطاجيكستان، وتبلغ مساحتها الإجمالية حوالي ٤٤٧٤٠٠ كم، عاصمتها (طشقند) وهي من أكثر دول وسط آسيا كثافة في عدد السكان. حاول الروس تغيير معالم أوزباكستان ومحو الطابع الإسلامي فيها، لا سيما في مدنها ذات المجد الإسلامي التليد، كمدينة بخارى^(٤) التي فتحها قتيبة بن مسلم

الباهلي ٩٠هـ، ولمدينة بخارى مكانة رفيعة في قلوب المسلمين، كما ازدهر الإسلام في حكم السامانيين في منطقة بخارى وما وراء النهر - ما وراء النهر هي المنطقة الواسعة المحصورة ما بين نهري سيحون وجيحون وما حولهما - وأنجبت بخارى علماء كثر أمثال الإمام البخاري وغيره، وقد ظلت مساجدها ومدارسها مركزا إسلاميا لمئات المسلمين لا يقل عن مكانة بغداد والقاهرة بحيث زحرت بخارى بمئة وسبعة وتسعين مسجدا ومئة وسبع وستين مدرسة لم يبق منهم إلا جامع واحد ومدرسة واحدة. ومدينة سمرقند منارة من منارات الإسلام،

(*) مدرس الأدب والنقد - الجامعة الأمريكية - بالقاهرة.

(١) د. محمد النعماني، آسيا الوسطى والقوقاز والصراع القادم في العالم، الحوار المتمدن، ع: ٤٢٤٥، ٢٠١٣م.

(٢) د. أحمد علو، دول آسيا الوسطى أو الستانات الخمسة. مجلة الجيش، القاهرة ط ١، ٢٠١٢م، ع ٣٢٩.

(٣) محمد يوسف عدس، الإسلام والمسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، كوالالمبور، مركز دراسات العالم الإسلامي بماليزيا، ط ١، ٢٠١٧م، ص ٢٣٧.

(٤) د. هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٣١.

(بسندن الترمذي) ومدينة (نسف) ولها شهرة واسعة في علم التفسير على يد علمين هما: (أبو إسحاق النسفي) (وأبو البركات النسفي) ومدينة (صاغنيان) والتي فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أشهر علمائها أبو الفضائل الصاغاني.

وصل الإسلام إلى أوزباكستان بعد أن فتح المسلمون خراسان حيث تولى قتيبة بن مسلم الباهلي (٨٨هـ-٧٠٦م) أمر خراسان عندما عبر نهر جيحون، واستطاع أن يرفع راية الإسلام حتى دانت له بلاد أوزباكستان (٩٤هـ-٧١٢م) ونجح في تثبيت دعائم الإسلام فيها ويتخذ مفتي أوزباكستان طشقند^(٦) مقرا له ويقوم بالإشراف على مجلة المسلمون، وهي مجلة دورية إسلامية هناك، كما بأوزباكستان مدرستان فقط يسمح فيهما بتدريس المواد الشرعية، وهما مدرسة أمير عرب في بخارى، ومدرسة الإمام البخاري في طشقند كما يوجد مئة مسجد مفتوحا للعبادة، ويكثر فيها الإدارات الإسلامية الروحية والطرق الصوفية.

٢- كازاخستان:^(٧) تحدّها من الشمال روسيا، ومن الجنوب كل من الصين وقرغيزستان وأوزبكستان وتركمانيستان، ومن الشرق الصين، ومن الغرب روسيا، هي أكبر دولة مسلمة في العالم مساحة (حوالي ٣٠٠،٧١٧،٢ مليون كم ٢ منها ٤٧،٥٠٠ ألف كم ٢ من المياه). وتشتهر كازاخستان عالمياً لوجود المركز الفضائي السوفييتي (بايكونور) فيها، وكذلك مركز التجارب النووية في (سيميبالاتنسك). وعاصمتها (أستانا) وهي تعتبر أيضاً مرتفعة في

التي فتحها قتيبة بن مسلم ٩٣هـ بعد، وهي مدينة زاخرة بالعلم والمعرفة، وتضم مركزا للبحث العلمي، ومعاهد علمية، وكان بها أكبر سوق للعبيد، بنى فيها قتيبة بن مسلم أول مسجد للصلاة وسمي (مسجد الجمعة) ٩٤هـ ثم واصل مسيرته حتى وصل (كاشغر) وقارب حدود الصين، وأقام بها كما أمر أن يسلم له ما في المعابد البوذية من أصنام، ويوجد في سمرقند قبر الصحابي (قثم بن عباس) ابن عم رسول الله ﷺ، ويعد مزارا مقدسا للمسلمين، ومدينة سمرقند^(٥) التي ضرب فيها الخليفة عمر بن عبد العزيز مثلا للعدل ونشر الأمان والاستقرار فيها؛ حيث وفد عليه قوم منهم يشكون إليه أن القائد قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين بالقوة، فكتب إليه ينصب لهم قاضيا فإذا قضى بإخراج المسلمين تركوها، فما كان من أهل سمرقند؛ إلا أن رفضوا خروج المسلمين، وقرروا التعايش معهم لما وجدوه من روح الإسلام السمحة التي شجعت عددا كبيرا منهم على دخول الإسلام.

ومدن أخرى ك: (طشقند، وخوارزم، وخوقند) مدن حافلة بالأمجاد الإسلامية، ولكن المسلمين جاهدوا في هذه المدن الإسلامية بالرغم من محاولة نقل الروس العاصمة من سمرقند إلى طشقند بهدف تغيير الطابع الإسلامي فيها، والتي نزح فيها أكثر من مليون روسي واستوطنوها.

ومدينة خوارزم اشتهر فيها الخوارزمي واضع علم الجبر، ومدينة ترمذ المشهورة بمدارسها ومعاهدها اشتهر فيها الإمام الترمذي من علماء الحديث صاحب كتاب الجامع الصحيح المشهور

(٥) د. هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، ص ٤٠.

(٦) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٧) سياسة كازاخستان الخارجية، سبتمبر/أيلول، ٢٠١٥م.

المسلمين، حيث ٥٧٪ من العناصر الإسلامية من الأوزبك والتتار والقرغيز، وقد وصل الإسلام إلى إقليم فرغانة في نهاية القرن الأول الهجري على يد القائد قتيبة بن مسلم الذي عبر نهر سيحون ثم كاشغر على حدود الصين، وزادت الدعوة الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز حيث اعتنق أهلها الإسلام طواعية، ثم في خلافة العباسيين انتشرت اللغة العربية وأصبحت اللغة الرسمية في دولة الخواريين، كما قام التجار بنشر الإسلام عن طريق القوافل (طريق الحرير) بوادي فرغانة ومكث أحد الدعاة اثني عشر عاما وهو (إسحاق ولي) الذي ظل ينشر الإسلام فيها، ثم ازداد الإسلام تمكينا في عهد السلاجقة، ثم تعرض للجمود في عهد المغول، ثم تحولت الدعوة إلى الازدهار بعد إسلام ملوك التتار فأخذ الكثير من خواريين المغول الدعوة على عاتقهم بعد إسلامهم في نفس الوقت الذي نشطت فيه الطرق الصوفية.

٤- طاجيكستان: هي أرض حبيسة أيضا، تقع على الطرف الجنوبي لمجموعة دول آسيا الوسطى، وهي أصغر هذه الدول إذ تبلغ مساحتها حوالي ١٤٣,١٠٠ كم^٢، ولكنها أغناها بالثروة المائية (الثامنة في العالم). تحدها من الشمال قرغيزستان، ومن الجنوب أفغانستان، ومن الشرق الصين، ومن الغرب أوزبكستان، ويبلغ طول حدودها حوالي ٣٦٥١ كم عاصمتها مدينة (دوشنبه)^(١٠)، وتعد كثافتها السكانية مرتفعة بالنسبة إلى دول وسط آسيا.

الأغلبية من المسلمين فيها يتبعون المذهب الحنفي وهم أكثر

عدد سكانها بالنسبة لدول وسط آسيا. ونجد نسبة المتعلمين من المسلمين الكازاخ ٧,٩٩٪، وقد أنشئت فيها أكاديمية ضخمة للعلوم يتبعها أربعة وثلاثون مركزا بحثيا عام ١٩٩٣م، وقد دخل الإسلام كازاخستان في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وذلك بواسطة جهود الدعاة ورجال التصوف بواسطة المريردين الصوفييين التابعين لطريقتي اليسوية والقادرية والنقشبندية من بخارى وسمرقند الذين كانوا يدعون للإسلام، وفي عهد العباسيين زاد انتشار الإسلام وخاصة في عهد المعتصم بالله، كما مكن إسلام الأتراك والسلاجقة من انتشار الدعوة الإسلامية. ويعود انتشار الدين الإسلامي وتعميقه في النفوس بعد إسلام تجار تتر الفولجا^(٨)؛ حيث قاموا ببناء المساجد والمدارس القرآنية، والآن افتتحت مساجد جديدة، وأقيمت مسابقات لتلاوة القرآن الكريم التي تنظمها وزارة الشؤون الدينية الكازاخية ويحصل الفائزون على جوائز مادية وعينية متعددة، ولقد تميزت كازاخستان الحديثة ببناء المساجد الفاخرة والجامعات الإسلامية.

٣- قرغيزستان: تقع قرغيزستان على امتداد الحدود الشرقية لمنطقة آسيا الوسطى، ويحدها من الشمال كازاخستان، ومن الجنوب الصين وطاجيكستان، ومن الشرق الصين، ومن الغرب أوزبكستان، وهي ثاني أصغر دول آسيا الوسطى الخمس، وتبلغ مساحتها ١٩٨,٥٠٠ ألف كم^٢ منها ٧١٠٠ كم^٢ من المياه. عاصمتها مدينة (بشكيك)^(٩). وتعتبر معتدلة الكثافة السكانية، وعدد سكانها ٣٦٥٥٠٠ نسمة أغلبهم من

(٨) هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، ص ٦٧.

(٩) المرجع السابق، ص ٧٦.

(١٠) المرجع السابق، ص ٧٨.

يوسف بابا حمداني)، وجامع (تلختن بابا)، وجامع (بلال بابا)، ومن أهم الأماكن المقدسة هناك قبر الولي (يوسف حمداني)، وكان أحمد يسوي صاحب الطريقة الصوفية اليسوية من أحد مريديه. وترتبط الجماعات الصوفية بالمجتمع القبلي التركماني حيث زعامته وراثية تتمسك بأربع قبائل مقدسة تشمل (أنا، وخوجه، وسيد، وشيخ)، وامتدت حدود الإسلام لمناطق أبعد. وتضم تركمانستان عددا من المدن الإسلامية المشهورة منها: (مرو، وسرخس، وبيهق، وجزء من خوارزم، وطبرستان) وكانت مساجدها، ومعاهدها الإسلامية كثيرة^(١٢)؛ حيث تخرج منها مشاهير العلماء، والفقهاء والمحدثين، وأهلها من المسلمين سنيون على المذهب الحنفي، وانتشرت بينهم الطرق الصوفية أشهرها: (اليسوية، والنقشبندية، والكبراوية) وكان لهذه الطرق دور كبير في إسلامهم وتعميقه فيهم.

دعونا نقرب لهذه الجمهوريات الخمس أكثر حيث نلمح بعض الملاحظات المهمة منها:

١- البداية كانت حينما دخل الإسلام إلى المنطقة عبر حركة الفتوحات الإسلامية منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وخلال القرن الهجري الأول استمرت في عهد الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ثم الخليفة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ثم على يد القادة في عهد بني أمية، حيث فتحت بلاد فارس بالكامل، ومناطق كبيرة من آسيا، وازدهرت الفتوح في عهد خلافة عبد الملك بن مروان ثم في عهد العباسيين، واستمر أهل تلك البلاد بالنقض والانقلاب والقتال، ولم يستتب

تدينا، وانتشرت فيهم الطرق الصوفية. وقد وصل الإسلام إلى بلاد الطاجيك عن طريق المسلمين الفاتحين، فكان القائد قتيبة بن مسلم الذي فتح إقليم فرغانة ٦٤ هـ وبعد سلسلة من الفتوحات تولى أخوه صالح بن مسلم القيادة فأكمل فتح باقي إقليم فرغانة، حتى وصل إلى طاجيكستان.

اشتهر في الطاجيك علماء وشعراء كالشيخ ابن سينا، والشاعر الفردوسي صاحب الشاهنامه، وعمر الخيام صاحب الرباعيات، وتألق الإسلام فيها في عهد السامانيين، ثم في عهد الغزنويين بقيادة محمود الغزنوي، ثم في عهد السلاجقة، ثم المغول بعد إسلامهم.

٥- تركمانستان: تقع تركمانستان في أقصى الطرف الجنوبي الغربي لجمهوريات آسيا الوسطى، ويحدها من الشمال أوزبكستان وكازاخستان، ومن الجنوب إيران، ومن الجنوب الشرقي أفغانستان، ومن الغرب بحر قزوين، وتبلغ مساحتها ٤٨٨,١٠٠ كم^٢، عاصمتها مدينة (عشق آباد)^(١١)، وتعد منخفضة الكثافة السكانية بالنسبة إلى باقي دول وسط آسيا.

في عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ثم علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- حيث وجه إليها الأحنف بن قيس فوحد أهلها فدخلوا الإسلام، ثم في ولاية المعتصم بالله دخلت قبائل التركمانستان إلى الإسلام وساهم السامانيون بنقل الدعوة إليها عن طريق أحد أمرائهم ويدعى (ساتوف) الذي أخذ على عاتقه نشر الدعوة الإسلامية حتى حدود الصين ثم دخل المغول الإسلام فكان فتحا مبينا للإسلام والمسلمين. ومن الجوامع المشهورة فيها جامع (خوجه

(١١) محمد يوسف عدس، الإسلام والمسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، ص ٢٧٩.

(١٢) د. هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، ص ٧٥.

صوب العالم الإسلامي؛ إذ كانت هذه الدول مهياًة لإقامة علاقات قوية مع الدول العربية والإسلامية، تقوم على أساس التعاون في كافة المجالات خاصة المجال الاقتصادي والثقافي.

٤- لعبت المدارس الإسلامية السرية أثناء سيطرة الحكم الروسي، والمساجد الخفية، والخانقاهات والطرق الصوفية دوراً مؤثراً في الحفاظ على التدين بين شعوب المنطقة وخاصة في الأرياف والقرى، كما أن النساء لعبن دوراً أكثر تأثيراً في الحفاظ على التدين.

وكان حوالي ست مئة مسجد سري يعمل في أوزبكستان فقط عام ١٩٤٥م، كما أن حوالي خمس مئة مدرسة ومسجد كانت تعمل في طاجيكستان في تلك الفترة، وكان هناك آلاف من الشيوخ غير الرسميين يقومون بأداء المراسم الدينية للناس في الموالد والمآتم.

٥- إن استقلال دول آسيا الوسطى، وخروجها من السيطرة السوفيتية في بداية التسعينيات دفع بها إلى وضع ساعد على عودة الروح، والهوية الإسلامية بوصفها المكون الأساس لتاريخ تلك الشعوب وثقافتها، وسوف يتزايد أثر الإسلام وفاعليته مع كل تحرك جديد من دول آسيا الوسطى الإسلامية في اتجاه ترسيخ استقلالها الحقيقي، مما يساعد بالضرورة على رجوعها التدريجي إلى محيطها وبيئتها الإسلامية، فكان الاهتمام بإنشاء دور الإفتاء الرسمية التي أنشأتها حكومات الدول الخمس بعد استقلالها وأولتها اهتماما ملموسا، وبناء العديد من المساجد، والمدارس الدينية، وعودة الالتزام ببعض الشعائر الإسلامية التي كانت في طريقها للانقراض؛ حيث كان لدول آسيا الوسطى آمال كثيرة في أن تتحرر من أثقال الماضي، وتستعيد هويتها

حكم الإسلام فيها إلا في عهد الفاتح الكبير (قتيبة بن مسلم الباهلي)، وهو الذي أعاد فتح بلاد خوارزم وبخارى وسمرقند ثم ولي خراسان، وهو الذي وطد حكم الإسلام في بلاد ما وراء النهر سنة ٨٨هـ - ٧٠٦م.

تجلت شخصية الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي في فتح جمهوريات آسيا الوسطى، ورغم مرور القرون الطويلة؛ إلا أن شعب آسيا الوسطى ينظر إليه على أنه ولي كبير من أولياء الله الصالحين وأضحى قبره مزارا مقدسا لهم.

٢- كانت آسيا الوسطى من الناحية التاريخية مترابطة حضارياً -أصول تركية وفارسية - ودينيًا -غالبية إسلامية - بشكل وثيق، فقد كانت منطقة تقاطع الطرق لحركة الناس، والسلع، والأفكار بين أوروبا، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، وشرقها، ومن خلالها يمر ويتقاطع عدد من فروع طريق الحرير البرية القديمة، والتي تسعى بعض الدول الإقليمية إلى إحيائها من جديد من خلال شق الطرق، ومد السكك الحديد، وأنابيب النفط والغاز.

٣- مع انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي وزوال الشيوعية^(١٣) استقلت الجمهوريات الخمس في آسيا الوسطى، وتأسست رابطة الدول المستقلة عام ١٩٩١م، ومن هنا ظهرت خمس جمهوريات كدول إسلامية جديدة أضيفت إلى خارطة الدول المستقلة. ومن الواضح أن هذه الدول في حاجة ماسة لتلقي يد العون والحصول على المساعدة من الدول العربية والإسلامية؛ بعد زوال الحاجز السوفيتي الذي كان يفصل بينها وبين هذه الدول التي تجمعها وإياها روابط ثقافية وتاريخية وجغرافية.

وبدأت بعض دول آسيا الوسطى في التحرك

(١٣) وكالة الأنباء الإسلامية الروسية.

للشباب والقضايا الاجتماعية والروحية، والأشياء والمعرفة حول العالم على أساس الأدلة العلمية، وقد وُجِدَتْ أيضًا قصص حيّة عن الأبطال الحقيقيين في الإسلام وإنجازاتهم، وأيضًا عن أبطال المسلمين في الألعاب الرياضية والعلوم والثقافة في قيرغيزستان وخارجها. كما تهدف المجلة إلى غرس واحترام الثقافات والأديان، والحضارات الأخرى، وتوسعة مدارك الشباب المسلمين، ومساعدتهم على التفكير واتخاذ القرار.

٧- وبالنسبة للمرأة في آسيا الوسطى في عام ٢٠٠٢م طالبت نساء تناريات مسلمات الحق في استخدام صور لجوازات سفرهن بغطاء الرأس، وبعد احتجاجات متواصلة استجابت وزارة الداخلية لمطالبهن^(١٥).

وختامًا فالجمهوريات الإسلامية الخمس تنهض وتنتعش إسلامياً وسط تقدير بالغ لدور الأزهر الشريف في نشر صحيح الدين والدعوة فيها بوصفه دين السلام والأمان والإيثار والإخاء.

الإسلامية، فالإسلام والرغبة في العودة إليه يحتل ركنًا أساسيًا في هوية مسلمي آسيا حيث كانت المنطقة قبل دخول الإسلام تدين بأديان آسيا الوسطى المتعددة مثل: البوذية، والزرادشتية، والنسطورية، والنصرانية، وعانت من التفرقة العرقية والظلم والحروب بين القبائل، والقوى العسكرية، فيما بين إمبراطوريتي الصين من الشرق، وفارس من الغرب.

٦- صدرت مؤخرًا أول جريدة إسلامية في قيرغيزستان تحمل اسم (الأمة)^(١٤) وتعد أول مجلة إسلامية شاملة؛ حيث تمثل أول منتج إسلامي لوسائل الإعلام الوطنية باللغة الروسية، والتي يوجد فيها صفحات لموضوعات مثل: الثقافة، والعلوم، والرياضة، والصحة، والأسرة، والجغرافيا السياسية، والاقتصاد، وينظر إليها من خلال منظور الإسلام، وتهدف المجلة إلى توفير المعلومات عن الإسلام، والحضارة الإسلامية، والتاريخ والفن والثقافة، والتقدم التكنولوجي في الوقت الراهن، إضافة إلى المعلومات المعرفية



(١٤) قيرغيزستان: الأمة أول مجلة إسلامية شاملة خبر مترجم عن اللغة الروسية شبكة الألوكة.

(١٥) د. أحمد عبد الحافظ فواز، المسلمون في روسيا ما بين الإرث التاريخي والإشكاليات المعاصرة مجلة المستقبل العربي، ص ٨٠.